نظرة على المراثي النبوية :

يقول حسان في قصيدته الطويلة، التي منها [1]:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرَّسُومُ وَتَهْمُدُ
وَلَا تَمْتُحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ	بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمَ	وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ	وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ
أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنَ جُهْدَهَا	عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ	بِلَادٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمَّنَ طَيِّبًا	عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرَبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ	عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حُلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً	عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لَا يُوَسَّدُ
وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ	وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ	رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ؟
تَقَطَّعُ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ	وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنَجَّدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ	وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِدًا	مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يُسْعَدُوا
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنْ الْهُدَى	حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنَّى جُنَاحَهُ	إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ

وقال حسان في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [2] :

نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ	مَعَ الرَّسُولِ تَوَلَّى عَنْهُمُ سَحَرَا
مِنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاحِلَتِي	وَرُزِقَ أَهْلِي، إِذَا لَمْ نُؤْنَسِ الْمَطَرَا
ذَاكَ الَّذِي لَيْسَ يَخْشَاهُ مُجَالِسُهُ	إِذَا الْجَلِيسُ سَطَا فِي الْقَوْلِ أَوْ عَثَرَا
كَانَ الضِّيَاءَ. وَكَانَ النُّورَ نَتْبَعُهُ	بَعْدَ الإِلَهِ وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَا
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ	وَغَيَّبُوهُ وَأُلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدَرَا

[1] – الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 1994، ص60، 62.

[2] – المصدر السابق، ص 102.

لَمْ يَتْرُكِ اللَّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدًا	وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَهُ أُنْثَى وَلا ذَكَرَا
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلِّهِمُ!	وَكَانَ أَمْرًا مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ قُدِرَ

وقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ يَرْثِي رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم [1]:

يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى	لِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى!
عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ	وَأَتْقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى
عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ	وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللَّهَا!

مضامين المراثي النبوية :

إذا تتبعنا ما قيل في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، فإننا نرى أن الشعراء قد تناولوا عديد القضايا المرتبطة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكان وجه الشبه بين رثائه صلى الله عليه وسلم ورثاء غير من الصحابة هو تعداد المناقب وذكر الفضائل، ونثر الدموع، والدعوة إلى الصبر، والتسليم بقضاء الله، وتوظيف القرآن الكريم، وغيرها من المعاني الإسلامية، التي لا تخرج به عن سياقه الملتزم، إلا أنَّ ما تفردت به المرثية النبوية على باقي المراثي الأخرى ما يمكن أن نشير إليه فيما يأتي :

1/ وصفه صلى الله عليه وسلم بما هو أهله كالهداية والرشاد والمقام المحمود واللواء المعقود والشفاعة العظمى وغيرها مما يتفرد به صلى الله عليه وسلم.

2/ دعوة الله أن يجمعه بأصحابه في جنات النعيم، وأن يرحمهم به.

3/ عدم الغلو فيه وإطرائه بما هو منهي عنه (كالذي فعله البوصيري مثلا في بردته).

4/ عدم تخلص بعض مراثي الشعراء المخضرمين للنبي صلى الله عليه وسلم من الإرث الجاهلي، وشاهد ذلك قول أبو ذؤيب الهذلي مستحضرا عقيدة زجر الطير (الطِّيَرَة)، المنهي عنه شرعا [2] :

وَلَقَدْ زَجَرْت الطَّيْرَ قَبْلَ وَفَاتِهِ	بِمُصَابِهِ وَزَجَرْت سَعْدَ الْأَذْبَحِ

تفسير هذا الأمر يرجع إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا ممن صاحب النبي صلى الله عليه وسلم صحبة، تجعل منهم عارفين بتعاليم الإسلام وتشريعاته، فهم بعد إسلامهم رجعوا إلى مضاربهم وقبائلهم، ولذلك ما زالت المعتقدات الجاهلية ملتصقة بهم.

5/ من الأشياء الجديدة في الرثاء، ذكر انقطاع الوحي بعد موته صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر هذا كعب بن زهير وعاتكة بنت عبد المطلب، ومن ذلك قول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب [3] :

فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا	يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَئِيلُ

[1] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص 173

[2] – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج07، تح : عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط01، 2000، ص 598.

[3] – أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج04، مصدر سبق ذكره، ص1676.

وَذَاكَ أَحَقّ مَا سَأَلَتْ عَلَيْهِ	نَفُوسُ النّاسِ أَوْ كَرَبَتْ تَسِيلُ
نَبِيّ كَانَ يَجْلُو الشّكّ عَنّا	بِمَا يُوحَى إلَيْهِ وَمَا يَقُولُ

6/ ذكر بعض القضايا السياسية المتعلقة بالأمة بعد موته صلى الله عليه وسلم كقضية الخلافة، كما في مرثية عبد الله بن أنيس؛ التي يدعو فيها أن لا تخرج عن قريش، وبالتحديد عن أصحابه المقربين؛ أبي بكر وعمر وعلي رضي الله تعالى عنهم، فيقول[1]:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا؟	وَهَلْ فِي قُرَيْشٍ مِنْ إِمَامٍ يُنَازِعُ؟
ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِنْ قُرَيشٍ هُمُ هُمُ	أَزِمَّةُ هَذَا الأَمْرِ، وَاللَّهُ صَانِعُ
عَلِيٌّ أَوِ الصِّدِّيقُ أَوْ عُمَرُ لها	وَلَيسَ لها بَعْدَ الثَّلاثَةِ رَابِعُ!
فَإِنْ قَالَ مِنَّا قَائِلٌ غَيْرَ هَذِهِ	أَبَيْنَا، وَقُلْنَا: اللَّهُ رَاءٍ وَسَامِعُ
فَيَا لِقُرَيْشٍ! قَلِّدُوا الأَمْرَ بَعْضَهُمْ	فَإِنَّ صَحِيحَ الْقَوْلِ لِلنَّاسِ نَافِعُ
وَلا تُبْطِئُوا عَنْهَا فَوَاقًا فَإِنَّهَا	إِذَا قُطِعَتْ لَمْ يَمْنُ فِيهَا الْمَطَامِعُ

[1] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 245.